(٤)

قال عَبدُ اللهِ بنُ ذَكْوان:

١ - وليس بِمُذْهِبٍ ما في فُؤادي * سِوَى بِيضٍ يُفَلِّقْنَ الشُّؤُونا

٢ - فلا تَرْضَوا بِأَخذِ النَّصفِ مِنهُمْ * فَإِنَّ النَّصْفَ حَظُّ الأَرذَلِينا

---

(٤)

لم أَجِد البَيتَين، وأَمّا عَبدُ اللهِ بنُ ذَكْوان فالمعروفُ بهذا الاسم هو أَبو الزِّناد عَبدُ اللهِ بنُ ذَكْوان، الفَقيهُ المَدَنيُّ مَولَى قُريش، كان أَحَدَ الأَئِمَّةِ الأَعلام، وكان فَصِيحًا بَصِيرًا بالعَرَبيَّة، تُوُفِّيَ ١٣٠هـ، وعَبدُ اللهِ بنُ ذَكْوانَ المُقرِئ، تُوُفِّيَ ٢٤٢هـ.

وفي «قطب السرور» أَبياتٌ نَسَبَها لعَبدِ اللهِ بنِ ذَكْوان يَصِفُ فيها الخَمر، وهي:

وعَذراءَ بِكْرٍ في الصَّباحِ افتَضَضْتُها * وحادِي الدُّجَى يَنْعَى الظَّلامَ ويَهتِفُ

وقُلتُ لأَصحابي اشرَبوها فإنني * بأَمثالِها رَحْبُ اليَدَينِ مُكَلَّفُ

فَما نَوَّرَ الإِصباحُ حَتى رأَيتُهُمْ * سُكَارَى وبَعضٌ بَعضَهُمْ ليس يَعرِفُ

فَلَمَّا أَفاقُوا قُلتُ عُودُوا لِمِثلِها * فَعادُوا فَظَلَّتْ كَأْسُهُمْ تُتَلَقَّفُ

سَرَتْ فِيهِمُ راحٌ عُقَارٌ سُلافَةٌ * يَظَلُّ أَخوها بالأَنامِلِ يَزحَفُ

إِذا صَدَمَتْهُ الكَأْسُ ظَلَّ كَأَنَّهُ * أَمِيرٌ على أَعوادِهِ يَتَشَرَّفُ

وأَستَبعِدُ أَن يَكونَ هذا الشِّعرُ الذي في «قطب السرور» لواحِدٍ مِن الرَّجُلَينِ المذكورَين، فلعَلَّه لرَجُلٍ آخَرَ اسمُهُ عَبدُ اللهِ بنُ ذَكْوان، ولعَلَّه هو صاحبُ المقطوعةِ التي في حَماسَتِنا هذه، ولم أَجِد شِعرًا لأَحَدٍ اسمُهُ عَبدُ اللهِ بنُ ذَكْوان غَيرَ هذا الشِّعر، ولا أَدري مَنْ هو.

١ - يُريدُ ما في فُؤادِهِ مِن الغَيظ أَو مِن الحُزْن إن كان قُتِلَ له قَريبٌ أو نحوُ ذلك، أَي: لا يُذهِبُ هذا الذي فُؤادي سِوى ضَربِ رُؤُوسِهم بالسُّيوف، و(**البِيض**): السُّيوف، والسُّيوف تُوصَفُ بالبَياض، ويُشَبَّه بَياضُها بِبَياضِ المِلْح.

و(**الشُّؤُون**): مَواصِلُ قَبائِلِ الرَّأْس ومُلتَقاها. قال المحقّق: "الشُّؤُون في الأَصل: عُروقُ الدَّمع، والمراد بها هنا الرِّقاب". قُلتُ: ليس المُرادُ هنا الرِّقاب، بل المُرادُ هنا الرُّؤُوس، بِدلالَة اللفظَين (**يُفَلِّقْنَ**) و(**الشُّؤُونا**).

أَمَّا دلالةُ (**الشُّؤُون**) فَلِأَنَّ الشُّؤُونَ في اللُّغَةِ جُزءٌ مِن الرأْس لا مِن الرَّقَبَة، وكَلامُ العُلَماءِ في ذلكَ كثيرٌ لا نُريدُ الإطالةَ بذِكرِهِ كُلِّه، قال في «لِسانِ العَرَب»: "والشَّأْنُ مَجرَى الدَّمعِ إلى العَين"، ولا شَكَّ أَنَّ الدَّمعَ يَجري مِن مَوضِعٍ مُرتَفِعٍ في الرَّأْس يَنزِلُ إلى العَين، ولا يَصعَدُ مِن الرَّقَبَة إلى العَين، وقالَ أَيضًا: "وقِيل: هيَ مَواصِلُ قَبائِلِ **الرَّأْسِ** إلى العَين"، فهذا نَصٌّ على أَنَّ الشُّؤُونَ جُزءٌ مِن الرأْس، وقال أَيضًا: "الليث: الشُّؤُونُ عُروقُ الدُّموعِ مِنَ **الرأْسِ** إلى العَين، قال: والشُّؤُونُ نَمانِمُ في **الجُمجُمَةِ** بينَ القَبائِل"، فهذا واضحٌ أَيضًا، وقال أَيضًا: "أَبو عَمرٍو وغيرُه: الشَّأْنانِ عِرْقانِ يَنحَدِرانِ مِن **الرأْسِ** إلى الحاجبَين ثم إلى العَينَين." وقال أيضا: "الجوهَريّ: والشأْنُ واحدُ الشُّؤُون، وهي مَواصِلُ قَبائِل الرأْس ومُلتَقاها، ومنها تَجيءُ الدُّموع"، فهي جُزءٌ مِن الرَّأْس كما ذَكَرنا لا مِنَ الرَّقَبَة.

وأَمَّا دلالةُ (**يُفَلِّقْنَ**) فإنّا لو لَم نَعلَم ما هي الشُّؤُونُ في اللغَة لكانَ يَنبَغي أَنْ نُقَدِّرَ أَنّها الرؤُوسُ لا الرِّقاب، لأَنَّ المألوفَ في شِعرِهم أنّهم يَستَعمِلون التَّفْليقَ ومُشتَقّاتِه مع الرؤُوسِ لا مع الرِّقاب، كما قال الكُمَيتُ بنُ زَيدٍ الأَسَديّ:

صَبَرنا فيه أَنفُسَنا بِبِيضٍ * يُفَلِّقْنَ الرُّؤُوسَ ويَختَلينَا

وكما قال الحَماسيُّ وهو الحُصَينُ بنُ الحُمَام:

يُفَلِّقْنَ هامًا مِن رِجالٍ أَعِزَّةٍ * علينا وهُمْ كانوا أَعَقَّ وأَظلَما

والهَامُ جَمعُ هامَةٍ وهي الرَّأْسُ لا الرَّقَبَة، وكما قال أَبو الطُّفَيلِ القُرَشيّ:

فَظَلْنَا نُفَلِّقُ هاماتِهِمْ * ولَم نَكُ فِيها بِبَيضِ البَلَدْ

٢ – (**النَّصْف**): الإنْصافُ، أَي: إذا أَعطَوكم الإنصافَ فَلا تَرضَوا بأَخذِه منهُم، بَل خُذوا ما فَوقَ النَّصْف والمكافأَة، لتَكونَ زيادَتُكم في العُقوبةِ مُقابلةً لبَدئِهم بالعُدوان، وهذا يُشبِه قَولَ جَريرِ بنِ الخَطَفَى: أَنا لا أَبتَدي ولكنّني أَعتَدي، يقول: لا أَبدأُ الشُّعراءَ بالهَجْو ولكنّي إذا بَدَأُوني قابلتُهم بأَكثرَ مما جاءوا به، وكقول الشَّمَيْذَرِ الحارثيّ:

فإنْ قُلتُمُ إنّا ظَلَمْنا فَلَم نَكُنْ * ظَلَمْنا ولكنّا أَسَأْنا التقاضِيا

يَقولُ لم نَظلِمْكم لأَنَّ الظالمَ هو المبتَدِئُ بالعُدوان لكنّنا أَسَأْنا التقاضِيَ إذ زِدْنا في عُقوبَتِكم على الاقتِصاصِ والمُماثلَة.

وإنما زَعَم شاعِرُنا أَنَّ النَّصْفَ حَظُّ الأَرذَلين لأنّه يَرَى أَنَّ الناسَ لا يَبدأُون بالظُّلم إلا مَنْ يَزدَرونَه ويَحتَقِرونَه ولولا ذلكَ ما اجتَرأُوا عليه، وأَنّه إذا كانَ كذلكَ لم يَكُن الاقتِصاصُ بالمِثْل مُذهِبًا لاستِهانةِ الناسِ بهم ولا نافيًا عنهُم كَونَهم مِنَ الأَذَلّينَ الذينَ يَتَوَثَّبُ عليهم الناس، ولذلكَ أَخبَرَ أَنّه لا يُذهِبُ ما في فُؤادِه إلا كَثرةُ القَتلِ فيهم لا مَحْضُ الاقتِصاص، فيَقولُ: إنْ قَتَلُوا منكُم واحدًا فَلا تَقتَصِروا على قَتلِ قاتِلِه بَل اقتُلوا بهِ جَماعَةً منهم، ليَرهَبَ الناسُ جانبَكم وتَمتَنِعوا مِن الهَضْم، وهذا مَبدَأٌ جاهِليّ، والاقتِصاصُ كافٍ في الرَّدْع، والزيادَةُ في العُقوبَةِ جَورٌ يُصَيِّرُ المظلومَ ظالمًا.